د. عبد العزيز قاسم

الحوار والتقارب المذهبي في المشهد السعودي

مكاشفات الشيخ حسن الصفار أنموذجا

العبيكان
Obeikan

إن المحاور الواعي المتمكن، يذهب بعيداً وراء أفكار وقناعات محاوره، ليقتحم مع قارئه نقاط التفتيش والخطوط الحمراء.. متجاوزاً المألوف من المجاملات، خاصة إذا كانت القضية ذات بعد وطني.. وكان من يحاوره شخصية مثيرة للجدل، وتحظى بهالة من التوهج والحضور الذي يجد قبولاً من فئات والرفض من فئات أخرى.

مركب صعب، ومغامرة تتطلب الكثير من الموهبة والوعي، والكثير جداً من الحرفية والذكاء، الذي يدهش ولا يفاجئ ويثير دون أن يتبسط.

وفق هذه المتطلبات.. وهذا المنحى، تأتي «مكاشفات» في جزئها الثالث، للأستاذ الإعلامي النابه عبد العزيز محمد قاسم، مع ضيفه سماحة الشيخ حسن الصفار، تواصلاً ل «مكاشفات» الجزء الأول..

والتي كان الهدف منها، الجمع بين الرموز والنخب الفكرية المختلفة، على أرضية حوار حضاري يورد المآخذ.. ويتصدى للتهم بكل الصراحة الممكنة والمتاحة عبر قراءة عميقة.. لأطروحات الضيف وأفكاره، مع اتصال مباشر مع معارضيه، لقطع الطريق أمام الذين ربما أساءوا من حيث ظنوا أنهم أحسنوا.

ولعلني لا أجافي الحقيقة، إن قلت أن تلك «المكاشفات» قد حققت نجاحاً باهراً في خلق أرضية خصبة، لأجواء من الحوار الإيجابي المسؤول.

وبقدر ما سعدت بذلك النجاح، كانت سعادتي أكبر عندما طلب مني الصديق الأستاذ/ عبد العزيز قاسم تقديم هذه «المكاشفة»، والتي وجدت هوى في نفسي تقديراً للموضوع، وإجلالاً لسماحة الضيف.

فطوال حياتي المترعة بهموم الشأن العام وكل ما يصب في خانة مصلحة الوطن والمواطن لم أدع يوماً بأنني من زمرة من يطلق عليهم «المثقفين»، إلا بالقدر الذي يقربني من الدور الذي يجب عليهم الاضطلاع به نحو مجتمعهم، والمسؤولية التي يجب أن ينهضوا بها تجاه وطنهم..

وذلك نابع من إيماني العميق بأن المثقف إنسان بضاعته الأفكار، سواء كانت تلك الأفكار من إبداعه، أو كانت منقولة من غيره، ولكنه آمن بها، ويرغب في أن يحياها، ويقنع الآخرين بأن يحيوها معه، والأرجح أن تلك الأفكار من النوع الذي من شأنه أن يغيرَّ حياة الناس نحو الأفضل، متمثلاً بمقولة ديمقراطيس الخالدة: «إنني أفضل أن أظفر بفكرة تتقدم بها الحياة على أن أظفر بملك فارس»!.. اضطلاع بدور ريادي طليعي تنويري.. يرتكز على مبادئ الحق والخير والعدل.. التزاما بقضايا المجتمع.. تعبيراً عن مشاعره وأحلامه وآلامه وآماله.

وكان لذلك الدور أثره في احتفائي بقامات سامقة في حياتنا الثقافية والفكرية.. نفر كريم من هؤلاء النخب كانوا محجتي وملاذي، حين تسعدني ظروفي بلقائهم، أو حين لا أعبأ بمشاق الالتقاء بهم..

ففي معايشة أمثالهم، والحوار معهم.. عمارة للعقل، ونماء للعلم، ولقاح للفهوم، فإن كان العقل ينمو بالمعرفة والتثقيف والتحصيل، فإنه يتوقد بالحوار والتواصل والمناظرة، ومن بين هذه الكوكبة، كان هنالك من أضاف إلى معارفي من خبرته وتجاربه، ومن جادلني جدال العالم الواعي المتمكن من معارفه، كما كان منهم من وافقني الرأي دون رياء، أو خالفني فيه دون استطالة.

ويأتي في طليعة تلك الكوكبة التي يرتجى منها علم وصلاح ومداواة لبعض علل وأوجاع المجتمع.. والتي أسعدتني الظروف بلقائها، والاستزادة من علمها وفكرها وإن أتى ذلك متأخراً: سماحة الصديق الشيخ حسن موسى الصفار، العالم السعودي الشيعي، الابن البار لهذا الوطن.. العاشق له.. والمنتمي إليه دون مزايدة، والمعلن لآرائه وأفكاره في أصول المذهب وفروعه وشعائره دون تعصب وانغلاق.

استوقفتني أفكار وتوجهات سماحة الشيخ الصفار، الداعية إلى الوحدة الوطنية والسلم الاجتماعي، والعدالة، والحقوق المتساوية، والفرص المتكافئة، والمجتمع المتواد المتحاب، والرافضة للتناحر المذهبي خاصة وأن ثقافتنا الإسلامية متهمة الآن في العالم بعد أحداث ١١ سبتمبر بأنها تعصبية، تدعم الإرهاب والتطرف، وكراهية الآخر في حين أن المخلصين من مفكري الأمة، يناضلون لإبراز سماحة الإسلام وتعاليمه في احترام الإنسان، والتعايش بين أبناء البشر.. ولكن وللأسف فإن واقع التشنج والاستعلاء غير المبرر والصراع الداخلي بين دعاة الجهوية والقوى والمذاهب، يلغي كل هذه الجهود المخلصة.. إذ كيف يتسنّى إقناع الآخرين من غير المسلمين باستعدادنا للتعايش معهم، واحترام حقوقهم في ظل عجزنا عن التعايش فيما بيننا؟

بل وكيف نقنع الآخرين، بأننا مستعدون لقبول الرأي الآخر، والتعايش مع الأديان الأخرى والبشرية جمعاء؟

فلسماحة الشيخ حسن الصفار إسهامات مقدرة في إثراء الفكر الإسلامي.. وإشاعة ثقافة التسامح والتعددية والحوار، عبر أكثر من ٦٠ مؤلفاً، وخاصة في هذا الجانب، الذي أستأثر على الكثير من جهده.. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مؤلفاته القيمة: «التعددية والحرية في الإسلام»، و«التنوع والتعايش»، و«التسامح وثقافة الاختلاف»، و«رؤية حول السجال المذهبي»، و«السلم الاجتماعي.. مقوماته وحمايته»، إضافة إلى موقعه بشبكة الإنترنت، الذي يحتوي على أفكاره، التي تبشر بتوجهات الاعتدال والتسامح والتقريب.. والتي تعبر عن قناعات يؤمن بها ويناضل من أجلها.

ففي مؤلفه «الحوار والانفتاح على الآخر» يتجلى إيمانه الراسخ بهذه الفضيلة، حيث تتمحور فكرة الكتاب حول:

أن العزوف عن الانفتاح على الآخر، وغياب الحوار بين القوى والأطراف المختلفة في مجتمعاتنا، يعتبر مكمناً أساسياً من مكامن الداء، ومظهراً صارخاً من مظاهر التخلف، وتشترك عدة عوامل في تكريس هذه الحالة المرضية.. فلابد من تضافر الجهود الواعية لإضفاء أجواء صالحة، ولخلق أرضية جديدة تنمو فيها بذور الانفتاح والحوار، لتتعارف أطراف الحوار مع بعضها، وتكتشف نقاط الالتقاء، وتتبين موارد الاختلاف، ولتثري كل جهة معارفها وأفكارها من خلال انفتاحها وحوارها مع الآخرين، وليأخذ الاختلاف مساره الإيجابي في إذكاء حالة التنافس المعرفي، شحذاً للإرادات والهمم لتقديم العطاء الأفضل والأنفع للوطن.

ومن مؤلفه «نحو علاقة أفضل بين السلفيين والشيعة» الذي أعتبره منهاجاً قويماً للتعايش بين المذاهب أقتطف هذه الاستضاءة المشعة:

«مهما كانت إشكاليات السلفيين على الشيعة، وإشكاليات الشيعة على السلفيين، فإن الجميع يعيشون في وطن واحد، لا يستطيع أحد الطرفين إبادة الآخر ولا أظن أنه يفكر في ذلك وهم جميعاً أهل لهذه الأرض وأبناء لترابها، ولا يحق لأحدهما المزايدة على الآخر في الأصالة وعمق الانتماء.

أما المراهنة على تغيير المعتقدات والقناعات بالترغيب والترهيب فقد ثبت فشلها، حيث كان التيار السلفي في أوج القوة والنفوذ، وتوفرت له الإمكانات المادية الضخمة، خاصة أثناء الطفرة الاقتصادية، وواتته الظروف الدولية والإقليمية أيام الحرب الباردة والمواجهة بين الشرق والغرب أثناء الجهاد الأفغاني، بينما كان الشيعة في موقع المحاصرة والاستهداف.

فهل استطاع السلفيون، مع كل نفوذهم وتأثيرهم على مناهج التعليم، ووسائل الإعلام، ومختلف الأجهزة والمؤسسات، أن يحدثوا تحولاً أو تغييراً في معتقدات وتوجهات الوسط الشيعي؟

بل على العكس من ذلك، زادت حالة التحدي ونمت بعض التوجهات المتشددة عن الشيعة، كرد فعل على الوضع السائد.

إن بقاء حال التشنج والقطيعة، ما عادت تتحمله ظروف البلاد، وقد صرح بذلك كبار المسؤولين في القيادة السياسية، وفي طليعتهم سمو ولي العهد، الذي بادر بالدعوة إلى حوار وطني بين مختلف المذاهب والأطياف.. وجاءت توصيات اللقاء الأول والثاني، لتؤكد هذه الحقيقة، وتدعو الجميع إلى الانصهار في بوتقة الوطن، مع الإقرار بالتنوع المذهبي والفكري.

فالتعايش هو الخيار المنطقي والصحيح، ولا بديل له إلا التفريط بمصلحة الوطن وتمزيق وحدة الأمة، ومساعدة الأعداء على نيل أطماعهم ومآربهم.